

الفيلسوف جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ (دراسة في أفكاره الإصلاحية)

Philosopher John Locke 1632-1704(a study of his reformist ideas)

Professor Dr. Samir Abdul Rasoul
Al Mustansiriya University
Al Mustansiriya Center for Arabic
and International Studies
Dr.saa2004@yahoo.com

أ.د. سمير عبد الرسول
الجامعة المستنصرية
مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية
الملخص.

تشكل العلاقة بين الفلسفة والايديولوجيا (علم الأفكار)، واحداً من أهم المحاور الأساسية للتفكير الإنساني، والجهود الفكرية المبذولة لاستيعاب تلك العلاقة وضمن مفهوم شامل لا تزال تواجه الكثير من الصعوبات، فالحاجة شديدة إلى تفادي التيارات المتناقضة، والشروع بتأسيس توجه نظري حديث يوطر الصلات بين الفلسفة والايديولوجيا.

عندما يبدأ الحديث عن مسيرة التطور الحضاري من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، يرد إلى الذهن، وبشكل تلقائي، انكلترا، التي حافظت على هذه السمة الرائعة للان، بالتزامن مع حضور فعال للطبقة الارستقراطية في ميدان الإصلاح، ليأخذ المجتمع الحديث والعلماني موقعه، مع تفكيك النظام الإقطاعي، والاستعاضة عنه بالملكية الدستورية.

يُعتبر جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤)، ابرز علماء الفلسفة في العصر الحديث، وأهم فلاسفة القرن السابع عشر، إذ يُعد مؤسس المذهب التجريبي، كما يُعد مؤسس مفهوم الليبرالية الحديثة على الصعيد السياسي والاقتصادي، حيث مهدت نظريته عن العقد الاجتماعي المجال أمام المشاركة السياسية للعموم، كما أسهمت آراؤه عن مفهوم الملكية في وضع حجر الأساس لمبدأ الاقتصاد الحر.

الكلمات الدلالية: جون لوك، الفلسفة، الفكر الإصلاحي، بريطانيا، القرن السابع عشر.

Abstract

The relationship between philosophy and ideology constitutes one of the most important basic axes of human thinking, and the intellectual efforts made to comprehend that relationship within a comprehensive concept are still facing many difficulties, There is a strong need to avoid contradictory currents and begin establishment a modern theatrical orientation that frames the connections,

When one begins to talk about the process of cultural development from the Middle Ages to the modern era, one automatically comes to mind: England, which has preserved this wonderful characteristic until now, in conjunction with an effective presence of the aristocracy in the field of reform, so that modern and secular society takes its place. with the dismantling of the fuddle system, and replacing it with a constitutional monarchy.

John Locke (1632-1704) is considered the most prominent philosopher of the modern era, and the most important philosopher of the seventeenth century, He is considered the founder of the empiricist doctrine, and he is also considered the founder of the concept of modern liberalism on the political and economic levels, His theory of the social contract paved the way for public political participation, His views on the concept of ownership also contributed to laying the foundation for the principles of the free economy.

Key Words : John Locke, Philosophy, reformist thought, Britain, Seventeenth century

المقدمة.

يعتبر الفيلسوف الانكليزي جون لوك John Locke (٢٩ آب ١٦٣٢ - ٢٨ تشرين الأول ١٧٠٤)، من أهم فلاسفة القرن السابع عشر، إذ تميزت نظرياته الفلسفية بالتححر والسعي لتأكيد المبادئ الديمقراطية في الحكم، ما جعل منه رائد مدرسة فلسفية خاصة، لذا يعتبر المنظر الرئيسي للفلسفة السياسية الأوروبية، إلى نهاية القرن الثامن عشر، وقد ساعده في ذلك وبشكل أساسي ممنهج، تعدد الرؤى والنظريات الفلسفية التي ضمتها مؤلفاته المتنوعة، تلك التي صدرت على مدى نحو أربعة عقود، حيث كان يواكب ببصيرته الثاقبة كافة التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكبيرة، والتي شهدناها انكلترا، بخاصة خلال حكم أسرة ستوارت (١٦٠٣-١٦٨٨).

أستهل البحث بالمبحث الأول، أي التمهيد "الفلسفة والايديولوجيا"، والذي كان بمثابة المدخل للمحتوى العلمي للبحث، فتطرق إلى العلاقة الوثيقة بين المفهومين، إذ تشكل واحداً من أبرز المحاور الرئيسية للمعرفة الإنسانية إبان الزمن المعاصر، لذا يتم بذل جهود فكرية مستمرة، للإلمام بحيثيات تلك العلاقة وتأطيرها في نظرية معرفية متكاملة، لكن الأمر ما زال يواجه صعوبات متعددة، بالنظر للتباين الكبير في وجهات النظر العلمية، حول هذا الأمر، الذي يشغل أذهان الكثيرين، وعلى مدى مدد تاريخية طويلة.

درس المبحث الثاني "الفكر الإنساني- الإصلاح (القرن السابع عشر)"، إذ شهد ذلك القرن عدد كبير من التغيرات الجذرية في القارة الأوروبية، كانت في المقام الأول من جراء حركة الإصلاح الديني، التي ظهرت في القرن السادس عشر، وتناولت بالنقد الدقيق، جميع مظاهر السلطة الدينية وحلفائها من الحكام الزمنيين، وامتدت لتشمل جميع ركائز المدرسة التقليدية، فمهدت لمفاهيم الحرية الإنسانية، تلك التي أدت إلى ظهور "المذهب الإنساني"، والذي يهتم بالإنسان في المقام الأول، مع السعي الحثيث للارتقاء بالمجتمع، من خلال سيادة مبادئ الحرية. وعلى كافة الصُّعد، كذلك تم توجيه النقد اللاذع من قبل العلماء والمنظرين الذين تبنوا الفكر الإصلاحي، إلى جميع مظاهر التسلط التقليدية، وبخاصة من قبل الحكام وحلفائهم من كبار رجال الإقطاع، والذين تحكموا بشكل متعسف بجميع مقومات الحياة في القارة الأوروبية، وعلى مدى قرون طويلة، من دون الأخذ بأية اعتبارات إنسانية أخرى.

تناول المبحث الثالث "سيرته وأهميته في تاريخ الفلسفة"، فجون لوك الذي ولد لأسرة تنتمي إلى طائفة البيورitan أو المطهرين Puritanism، وكان والده من دعاة التحرر، فساند البرلمان في صراعه المرير مع ملوك انكلترا، لذا تلقى لوك أول دروسه في الحرية ضمن نطاق الأسرة، ليلتحق بجامعة أكسفورد للمدة (١٦٥٢-١٦٦٧)، وخلال هذه المرحلة وما تلاها ترسخت أسس خلفيته المعرفية، من جراء مطالعته المهمة، وعلاقاته الوثيقة، مع علماء عصره، وكبار رجال السياسة في انكلترا، فانخرط بشكل عميق ضمن مسيرة الحراك المجتمعي النشط، والذي ميز نمط الحياة الانكليزية، في المرحلة التي سبقت الثورة الجلييلة عام ١٦٨٨، أو تلك التي تلتها.

أما المبحث الرابع والأخير "أفكاره الإصلاحية"، فسعى إلى تتبع سمات النتاج المعرفي لهذا الفيلسوف الفذ، والذي بدأ في العقد السابع من القرن السابع عشر، وامتد ليشمل مراحل زمنية مختلفة، باختلاف التطورات على الساحة السياسية في انكلترا، ولم يقتصر تأثيره على ذلك، بل اتسع ليضم الاقتصاد والمجتمع بكافة طبقاته، فقدم عدد من المؤلفات الرصينة، والتي حظيت باهتمام كبير من لدن المثقفين وعامة الناس في القارة الأوروبية، ثم تعدتها إلى ما سواها، وشكلت نبراس لأنصار التحرر، وللثوار، وبخاصة إبان حرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٦-١٧٨٣)، ثم الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩.

مشكلة البحث.

تعتبر الفلسفة من أهم العلوم، ويعود نمط الاهتمام بها وبمدارسها المختلفة إلى عهد اليونان والرومان، أصحاب المدارس الريادية في هذا المضمار العلمي المهم، وفي واقع الأمر أن الفلسفة كانت تحظى بالريادة على بقية العلوم في القرون الوسطى، لكن مع انبثاق العصور الحديثة، بدأ طرح أسئلة جدية عن مسائل لم يكن يتم الخوض فيها في السابق، ومنها سلطة الكنيسة والحاكم، والحريات المختلفة .

أهمية البحث

لطالما كانت انكلترا مهد الديمقراطية والفكر التحرري في العالم، ويعود ذلك بالأساس إلى طبيعة الفرد والمجتمع البريطاني العاشق للحرية، لذا واجهت السلطات الكنسية والملوك المستبدون صعوبات جمة أمام القوى المدنية، ومن هذا السياق التاريخي يبرز وبوضوح اسم الفيلسوف الفذ جون لوك، الذي كان من أول المنادين بحقوق الإنسان، والمدافع عن حريته بوجه السلطة الفردية للحاكم، لذا كانت أفكاره وكتبه التيتم نشرها أثناء حياته أو بعد رحيله، بمثابة نبراس لمن أعقبه من فلاسفة التحرر، ثم للمنظرين الثوريين في أهم ثورتين شهدهما التاريخ الحديث وهما الثورة الأمريكية العام ١٧٧٦، ثم الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وهي ما زالت تحظى بالاهتمام إلى الوقت الحاضر.

المبحث الأول: تمهيد (الفلسفة والايديولوجيا).

تشكل العلاقة بين الفلسفة والايديولوجيا Ideologie (علم الأفكار)، واحداً من أهم المحاور الأساسية للتفكير الإنساني في العصر الحالي، والجهود الفكرية المبذولة لاستيعاب تلك العلاقة وتنظيمها ضمن مفهوم شامل لا تزال تواجه الكثير من الصعوبات، فالحاجة شديدة إلى تقادي التيارات المتناقضة، الأحادية التوجه، والشروع بتأسيس توجه نظري حديث يؤطر الصلات بين الفلسفة والايديولوجيا بدون تحيز وبأكثر ما يتوفر من الوعي الموضوعي على نمط هذه المفاهيم، وطبيعة الروابط المتشابكة بينها^(١).

١ ناصيف نصار، الفلسفة في معركة الأيديولوجية، ط٢، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٢، ص٧. للتفاصيل ينظر: شايع الوقيان، الفلسفة بين الفن والأيديولوجيا (نقد ميتافيزيقا التصور)، ط١، النادي الأدبي بالرياض، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص ٨٣-١٠١.

هذا المفهوم هو من بين الأكثر شيوعاً، واللفظة من أكثر الألفاظ انتشاراً، ولكن معناه من أكثر المعاني إثارة للنقاش، لذا فإنه من اقل المفاهيم ثباتاً، فهو لدى البعض مفهوم، بل حتى مفهوم علمي، وعند فئة أخرى معنى غامض ينطوي على قدر من الابتذال، بل ذهب البعض إلى اعتباره "سبة"، إذ يذكر الفيلسوف الفرنسي ريمون آرون Raymond Aron (١٩٠٥-١٩٨٣) إن "الايديولوجية هي فكرة عدوى"، وهذا الرأي يبين أن المفهوم ذاته، هو إطار لعملية أدلجة Ideologisation عميقة^(١).

لذا تبرز إشكالية النظرة إلى المفهوم ضمن السياق التاريخي لظهوره وآليات تطوره، فهناك تعدد للايديولوجيا، مع استمرار أيديولوجيا قديمة، وظهور أخرى جديدة، ثم ظاهرة طغيان البعض على البعض الآخر، سعياً من أجل تحجيمها وإبعادها والقضاء عليها، وفي حين يتجه البعض إلى المزج بين البنى النخبوية والايديولوجيا، يتجه البعض الآخر إلى التطابق بين الايديولوجيا والثقافة، لكن يكفي في هذا السياق أن نُشير إن ثقافة ما، ليست إلا أسمى تعبير عن ايديولوجيا كانت منتشرة لمدة طويلة، وبتعبير أدق فإن الثقافة هي محصلة تماماً مثل لغات الشعوب، فالشائع أن تجمع ثقافة أو حضارة ما، في مكنوناتها الثقافات الماضية، ولكن بتغييرها، وتحويلها إلى مفاهيمها الخاصة، وهكذا تخضع الثقافة لايديولوجيا، تظل غير منظورة لا بذاتها، ولا بأطرها ومتغيراتها، فقد كانت الديانة المسيحية، هي السائدة خلال العصور الوسطى، أما في الثقافة البرجوازية، فهناك نمط عقلائي ذي صفة أخلاقية، أساسها ايديولوجيا ذات نسق قانوني^(٢).

تتحدد السمة الأساسية لتطور المفهوم في أن كل طبقة اجتماعية تكون ايديولوجيا خاصة ومع التغير في وضعها وأولوياتها تحدث تغيرات في ايديولوجيتها، ومن الممكن التأكد من مصداقية هذا الرأي بتتبع المراحل التي تطورت إثنائها أفكار الايديولوجيا المختلفة، من خلال توثيق مراحل تطور النسيج الاجتماعي وما دار فيها من صراعات طبقية باعتباره مكوناً أساسياً يستند إليه الرقي الاجتماعي برمته^(٣).

١ ميشيل فاديه، الأيديولوجية (وثائق من الأصول الفلسفية)، ترجمة د. أمينة رشيد/سيد البحراوي، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ص ١٠.

٢ المصدر نفسه، ص ١٣.

٣ د. علي زيدان خلف الجبوري، د. مشحن زيد محمد التميمي، تضاريس الأيديولوجيا، ط ١، القاهرة، ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٤، ص ٦.

حدثت بعض التجارب من فلاسفة ومفكرين سياسيين غربيين وعلماء الاجتماع، لتحديد نمط العلاقة بين الايديولوجيا والفلسفة، ففي المقام الأول، ظهر اتجاه واضح يتبنى مبدأ تفريغ الفلسفة من الايديولوجيا، ذلك ما يشمل مدارس فلسفية متعددة، يسهل تمييزها، حيث تقدم ذرائع متباينة، إذ تؤكد إحداها أنه لا يمكن "انقاذ" الفلسفة الحديثة إلا عن عبر إبعادها عن الايديولوجيا تماماً، في حين يسعى البعض الآخر للاستناد على "العقلنة" الناتجة عن التطور الرقمي، مما يعني نهاية المفهوم، والبعض الثالث يتبنى نظرية مفادها أن "التفريغ الايديولوجي" ضرورة فقط للفلسفة في علم الاجتماع الماركسي السوفيتي^(١).

بالإجمال ظهر منطق الواقعية الجدلية، الذي يتبنى توجه مفاده غياب الحاجة لرد الفلسفة إلى الايديولوجيا، أو الفصل التام بينهما، كما لا يوجد سبب لرد الوعي بالمفهوم إلى الوعي الزائف، فبحسب هذا المنطق أن ماهية الايديولوجيا مغايرة لماهية الفلسفة، فهي تشتمل بشكل أو آخر على فكر فلسفي، وتتخذ موقفاً من أي توجه فلسفي، في سعيها لتحقيق أهدافها، ضمن المسار النظري، وعلى مسار التأليف والتعليم، فالفلسفة تتضمن بصورة أو أخرى دوراً ايديولوجياً، كما تتخذ موقفاً من الأفكار الفلسفية التي تستند إليها الايديولوجيات المتنافسة، وممارساتها، وعلى نطاق اشمل، هناك نظرة ايديولوجية إلى الفلسفة، والعكس صحيح، إلا أن الايديولوجيا لا تستطيع أن تتحول إلى فلسفة، والعكس صحيح كذلك، فالتمييز النظري بين المفهومين لا يعني انتفاء الخلاف بينهما، وإنما يعني إن كلاهما يتطور وفق زمان ومسار خاص به^(٢).

يُعتبر تحديد تاريخ معين لظهور الايديولوجيا، من أهم الأمور الخلافية غير المنقح حولها بين غالبية مؤرخي الفكر الإنساني، ومرد ذلك الحيز الواسع الذي شغلته في مراحل التطور اليشري، من جراء ترادفها مع تطور المجتمعات، وهي تواجه القضايا وتمهد مسارها لبناء المستقبل، وتكوين مفاهيم وتصورات وأنماط وجود، فيوجد اتجاه يعيد تاريخ الفكر الايديولوجي إلى المعتقدات الإنسانية الأولى، ويؤسس وفق مبدأ الشعوب ذات الايديولوجيات المختلفة، تصوره لتاريخ الايديولوجيا بغض النظر فيما إذا كان ذلك يقوم على

١ ميشيل فاديه، المصدر السابق، ص ١٠٩ .

٢ ناصيف نصار، المصدر السابق، ص ٧-٨ .

فهم مغزاها والوعي بأبعادها أم لا، ومثال ذلك إن الصراع بين روما وبيزنطة، يندرج ضمن التوجه العقائدي الايديولوجي (١).

كان الفلاسفة خلال المدة السابقة للقرن التاسع عشر يولون اهتماماً كبيراً بمشكلة المنهج، وبالمقابل وفي الأعم الأغلب لم يرتابوا في وجود حقائق مستقلة تحظى بالموضوعية، بالإمكان إدراكها بطريقة ما، كما أنهم لم يشكوا في وجود طريقة موضوعية للتفكير في الواقع، ذات نمط جمعي، لا ينتج عنها تغيير جذري لما هو متداول، فهم بطبيعة الحال لم يتوغلوا بالمجمل في مفهوم الموضوعية ذاته، بل اقتصر الأمر على استعماله للدلالة على إيمان شبه شعوري بمقدرة العقل على الإدراك الموضوعي، وقد أشاروا إلى ما دعوه العقل Reason، باعتباره الملكة العاقلة التي تُدرك من خلالها القوانين الطبيعية.

بالمحصلة فإن أي تصور فلسفي للواقع، يفترض سلفاً طريقة للتفكير فيه، وقاعدة أو مبدأ لتنظيم ذلك التصور، يجب أن يتم الأخذ بها، لهذا فمن المستحيل إلغاء العنصر الذاتي، من أي مذهب فلسفي، فكل واحد منها يفترض بشكل شعوري أو بسواه، بعض الواجبات أو "المواقف" النهائية الأخرى، يكونها الإنسان ذاته، لكي يحيا وينجز واجباته، مع غياب جهة ما يلجأ إليها في حالة الاعتراض على صوابها، عقب التصميم على الالتزام بها، لكن تم تعديل تلك الذاتية العميقة بشكل تدريجي من جراء عمل آخر كان اشد تأثيراً على تفكير معظم الفلاسفة في تلك المرحلة.

يتضمن قاموس ويبستر Webster معنى ثالث للفظ الايديولوجيا، مرتبطة بالجانب التاريخي، وهي تشير إلى علم الأفكار، أي دراسة أصل الأفكار وطبيعتها، لكن دلالات هذه الإشارة التاريخية غير واضحة المعالم، ويجب الإتيان بتفسير لها بالنظر إلى أهميتها بالنسبة إلى عنوان البحث، فقد كان أول من صاغ اللفظ هو الفيلسوف الفرنسي ديتوت دي تراسي Destut de Tracy (١٧٥٤-١٨٣٦)، الذي استعملها للتتويه إلى " التحليل التجريبي المجدد للذهن البشري"، ذلك التحليل الذي صاغه في نمط علمي متسق الفيلسوف الفرنسي كوندياك Condilliac (١٧١٥-١٧٨٠)، في القرن الثامن عشر، الذي يعود في مرجعيته إلى "طريق الأفكار الجديد The new way of ideas"، في حين يعود الفضل في إيجاده للمرة الأولى إلى الفيلسوف الانكليزي

١ د.علي زيدان خلف الجبوري، د.مشحن زيد محمد التميمي، المصدر السابق، ص ١٠. للتفاصيل ينظر: ميشيل فاديه، المصدر السابق، ص ١٩-٢٩.

جون لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤)، في كتابه بحث حول الفهم الإنساني Easy Concerning the Human Understanding الصادر في انكلترا عام ١٦٩٠ (١).

المبحث الثاني: الفكر الإنساني - الإصلاح (القرن السابع عشر).

تشيع على السنة العامة وأنصاف المتعلمين مفردات عدائية ضد علم الفلسفة، مفادها أنها لا تعدو مجرد كونها خيال، وخوض في متاهة عقلية يُراد بها إشغال الناس عن متطلبات حياتهم وأمور معيشتهم، أما علماء الفلسفة فهم أناس منفصلون ومترفعون عن الواقع، فبدلاً من الإسهام في صنعه، يناون بذاتهم عنه إلى عوالم فكرية ومدارس فلسفية خاصة يحيون فيها، لذا أضحى همهم الوحيد هو ابتكار الدلائل الفكرية لمعتقداتهم الخاصة، فعاشوا في أبراج عاجية بعد أن قطعوا ارتباطهم مع الواقع، وهذا الاتهام خاطيء، بل هو يشير بالأساس إلى عدم فهم كامل للفلسفة ولدورها التاريخي المهم في تطور الأفكار والمجتمعات الإنسانية (٢).

لقد شهد القرنين الخامس عشر والسادس عشر حركة الاستكشافات الجغرافية، ما فصح المجال واسعاً لتدقق معارف جديدة عن أمم وجماعات بشرية تعيش بمنأى عن تأثيرات الدين المسيحي، كما كانت لها عقائد وأخلاق، فنشأت نظرية "الدين الطبيعي والأخلاق الطبيعية"، لذا شاعت في أوروبا مفاهيم إنسانية جديدة تؤمن بالطبيعة وتستغني عما سواها، وهي بالأساس تقوم على إحدى ركيزتي الفلسفة التي قامت عليها الحضارة اليونانية والرومانية، أي الصلة بين الإنسان والآلهة، فُشغلت الأذهان بالغيبيات وسواها، حتى تحسر أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) "على إن وحيأ إلهياً لم ينزل بخلود النفس فيقطع التردد والقلق" (٣)، حيث برز الدين كأهم مظاهر الحياة، ينظمها بدقة في مختلف جُزئياتها.

كان من نتائج ظهور "المذهب الإنساني" السعي لفصل الفلسفة عن سلطة الكنيسة والمعتقدات الدينية، أو بتعبير أدق معاداتها، فظهرت حملة عنيفة تجاه الفلسفات الشائعة، طالت أهم ركائزها سواء من حيث اللغة

١ هنري د. أليكن، عصر الايديولوجية، ترجمة فؤاد زكريا، مراجعة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٣، ص ١٨-٢٠ . للتفاصيل عن التحليل المنهجي والنقدي للايديولوجيا ينظر: د. علي زيدان خلف الجبوري، د. مشحن زيد محمد التميمي، المصدر السابق، ص ٥٣-٧٩

٢ الأستاذ الدكتور مصطفى حسن النشار، أعلام الفلاسفة حياتهم ومذاهبهم، ط ١، عمان، دار المسيرة، ٢٠١١، ص ٧ .
٣ للتفاصيل عن الفلسفة اليونانية والرومانية ينظر: جون إهرنبرغ، المجتمع المدني (التاريخ النقدي للفكرة)، ط ١، ترجمة د. علي حاكم صالح د. حسن ناظم، مراجعة د. فالح عبد الجبار، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، شباط ٢٠٠٨، ص ٢٩-٧٢ .

المستخدمة أو المقدمات والنتائج، ثم امتدت الحملة لتشمل العصر الوسيط بجميع مظاهره ورؤاه، فوصمته بالتخلف والوحشية، لكن الأمر المهم، كان وبلا شك تسرب نظريات هذا المذهب الإصلاحى إلى تعاليم الدين المسيحى، ما سمح بتقويض سطوة رجال الدين وبابوات روما، فالمذهب البروتستانتي لم يكن سوى احتجاج على تسلط الكنيسة الكاثوليكية، وما شاع من ممارسات خاطئة أبرزها بيع صكوك الغفران، فتبنت الدعوة لإصلاح الإدارة والطقوس الكنسية، ثم أعلنت بجلاء أن الدين يستند على "الفحص الحر" أي الإدراك الشخصي للكتاب المقدس، فأنتفت الحاجة إلى سلطة للشرح، ما بدد علم اللاهوت، فلم يتبقى سوى "عاطفة دينية عاطلة عن كل موضوع"، فظهرت الكنائس المستقلة بزعامة لوثر Luther (١٤٨٣-١٥٤٦)، وزوينجلي Zwingli (١٤٨٤-١٥٣١)، وكالفن Calvin (١٥٠٩-١٥٦٤)، تلك التي أطاحت بالمدارس الفلسفية التقليدية، وأنشأت الكنائس المستقلة، في حين قام هنري الثامن Henry VIII (١٥٠٩-١٥٤٧) بإرغام شعبه على ترك الكتلعة، وتبعه الكثير من الحكام الأوروبيين في دعم الأفكار الجديدة لغاياتهم الشخصية، فكان القرن السادس عشر من أكثر المراحل التاريخية اضطراباً وفوضى، إذ تراجعت إبانها الصلات الاجتماعية والدينية إزاء تنامي الروح القومية، فقامت الحروب والصراعات وامتزج الدين بالسياسة، فاستبيحت المحرمات بذريعة المصالح العليا.

احتلت النخبة الحاكمة في إيطاليا، الصدارة في ميادين تشجيع العلوم والفنون، فنبع الكثير من العلماء والمخترعين والفنانين في هذا السياق، وتلك كانت أهم سمات العصر الحديث، وهي ما زالت قائمة إلى العصر الحالي، وبالإمكان تتبعها إلى مصدرين، النزعة الفردية القوية بميادين الآداب والدين والسياسة، والاهتمام الكبير بالعلوم والاختراعات الجديدة، التي تهدف لتعزيز سلطة الإنسان على الطبيعة ومواردها، الأمر الذي تردد صداه في الفلسفة بكافة مدارسها، والتي سعت للنأي بأفكارها عن تعاليم الدين، وتبنى العلوم الناشئة، فلم تعد سوى مجرد ميول روحانية دينية، لذا تبقى الأجيال إلى الآن، حائرة مترددة، تعتنق المذاهب المختلفة وتتبذرها الواحد تلو الآخر، كما تستبدل الأنظمة الحياتية باستمرار^(١).

١ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية الحديثة، ط٢، بروكسل - باريس، ألكا - المفكر، ٢٠٢٠، ص ٦-٩. للتفاصيل ينظر: خوسيه كازانوف، الأديان العامة في العالم الحديث، ط١، ترجمة قسم اللغات الحية في جامعة البلمند، مراجعة الأب بولس وهبة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، آيار ٢٠٠٥، ص ٢٥-٦٩.

إن المراحل الانتقالية ليست يسيرة بالمجمل، كذلك التحول نحو الحداثة، إذ أدى تدهور المظاهر الحياتية خلال العصر الوسيط، إلى تفشي الاضطرابات، الأمر الذي منع ظهور نظريات ذات جدوى حول التطور المجتمعي، كما كانت الأطر التقليدية غير ذات جدوى، في حين لم تبرز الرؤى الجديدة، إذ كانت البنى السياسية والاقتصادية الجديدة في مراحلها الأولى، وكان النفوذ المتنامي للأسواق الناشئة والدول القومية، يزيج الإقطاع والطبقات الاجتماعية التقليدية (١).

يؤرخ لهذه المرحلة التي تدعى "العلم الطبيعي" خلال المدة (١٦٠٠-١٦٩٠)، حيث تم قمع قوى الإصلاح الديني وحرية الفكر من قبل التيار المضاد في إيطاليا، ولم تدعم النزاعات والحروب الدينية العمل الفلسفي في ألمانيا، أما في انكلترا، وهولندا، وفرنسا، فكانت الظروف مناسبة بشكل أكثر، وتحققت انجازات مهمة. كان الانجاز الأول الكبير وضع مناهج مبتكرة للبحث الفلسفي، إذ كان عدم وجود المنهج الصحيح من ابرز العيوب في المرحلة الماضية، إذ انه في حالة وجوده، كان سيحيي الفيلسوف من وضع نظريات لا تمت للواقع بصلة، أما بسبب غياب النقد الهادف لما تم الأخذ به في الماضي، أو نتاج تنظير لا يمت للواقع بصلة ما، كما يستوجب أن يُعنى بإنتاج اكتشافات جديدة في ميادين البحث التي تحظى بالاهتمام إلى الآن، وهو ما قام به الفيلسوف الانكليزي بيكون Bacon (١٥٦١-١٦٢٦)، بالتزامن مع الفيلسوف الهولندي ديكارت Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠)، والذان طوراً منهجاً جديداً كان له الأثر الفعال في التطور اللاحق للفلسفة، والحقيقة أن بيكون قام بإكمال هذا المنهج الجديد أكثر من تطويره، والإعلان بشكل واضح عن الروح التي يُعبر عنها، وجعل الناس يدركون مغزى القيم والمنهجية الفلسفية بشكل متزامن، أما الجزء الآخر من الانجاز، فقد تكفل به، هوبز Hobbes (١٥٨٨-١٦٧٩) وديكارت، واسبينوزا Spinoza (١٦٣٢-١٦٧٧)، وليبنيتس Leibniz (١٦٤٦-١٧١٦) وغيرهم، والذين نجحوا عبر منهجيتهم، من أن يؤسسوا مذاهب تمتعت بالتأثير والاهتمام إلى الآن، مع اختلاف كل منها عن الآخر، لكنها جميعها ذات قيمة.

إن البعض من هؤلاء الفلاسفة (ومنهم بيكون، وهوبز بدرجة اقل) تجريبيين Empricis في مناهجهم، والسبب أنهم كانوا انكليز مفعمين بالشغف البريطاني المعهود للتجريب العملي، ومعنى ذلك أنهم فلاسفة تبنوا نظرية مفادها إن المصدر الأول للمعرفة هو تجربة الحواس، أي أن التعميمات من المعطيات الحسية تُستمد

١ جون إهرنبرغ، المصدر السابق، ص ١٢١.

من الملاحظة والتجربة بصورة استقرائية (منطقية)، أما الفلاسفة الآخرون السالف ذكرهم فكانوا في مناهجهم عقليين Rationalists، ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا من مواطني القارة الأوروبية، ولتأثرهم بالتقدم في علوم الرياضيات والفيزياء في عصرهم، ذاك الذي أسهموا فيه شخصياً، كما آمنوا أن العقل يعتبر كمصدر للمعرفة أكثر أهمية من التجربة الحسية، لذا فعلى علماء الفلسفة أن يفكروا إلى حد ما بنفس الطريقة، مع التنويه إلى أن كل من العقليين والتجريبيين قد حظي بسعة الأفق، حتى أنهم أدركوا أن العمل الخلاق في الفلسفة يستلزم التوافق بين العقل والحواس، لذا يجب عدم التأكيد على وجود نقاط الاختلاف بينهما، لكن مع عدم التهوين من شأنها، وبالإجمال بدأت هذه المرحلة بالمذهب التجريبي لدى بيكون وتضاعفت إلى ذروة انجازها عن طريق المذهب العقلي لدى ديكارت واسبينوزا وليبنيتس (١).

لذا وبالإستناد إلى هذه المبادئ الفلسفية الليبرالية التي دعت للفصل بين الدين والدولة، كذلك الفصل بين السلطات، وطالبت بحرية المواطنين وتحديد صلاحيات الحكام، لتقتصر على إبداء الخدمة للمحكومين، والحرص على توفير أسباب الراحة والعيش الكريم لهم، كما طالبت بالمساواة والإخاء، ثم حرية العقيدة الدينية والرأي، وعلى أساس تلك النظريات يمكن تفسير التطورات السياسية الجذرية كالثورتين الأمريكية والفرنسية (٢).

المبحث الثالث: سيرته وأهميته في تاريخ الفلسفة.

ولد جون لوك في ٢٩ آب ١٦٣٢ في قرية سومرست Somerset Village ، أي في نفس العام الذي ولد فيه اسبينوزا، وكانت صحته، مثل اسبينوزا معتلة، إذ أنتسب إلى عائلة يتقش فيها داء السل، ولو أنه مات مثله شاباً، لما أشتهر كفيلسوف، إذ كان من المتوقع حدوث ذلك، لو لم يدرس الطب بغية الحفاظ على صحته، لذا تمتع بحياة نشطة، ونشر سلسلة من الكتب المهمة كانت بمثابة مراجع حددت التوجه الرئيسي لعلم الفلسفة لما يقرب من القرن .

١ وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط١، ترجمة محمود سيد احمد، تقديم ومراجعة أمام عبد الفتاح أمام، بيروت، دار التنوير، ٢٠١٠، ص ٦٣-٦٤ .

للتفاصيل ينظر: د. رسول محمد رسول، هيا إلى التنوير، ط١، الكوفة، تنويريات للنشر، ٢٠١٩ .

٢ الأستاذ الدكتور مصطفى حسن النشار، المصدر السابق، ص ١٢١. للتفاصيل عن فلاسفة التنوير والإصلاح في القرن السابع عشر ينظر: د. فيصل عباس، الموسوعة الفلسفية (الفلسفة وفلسفة التاريخ)، ج١، ط١، بيروت، مركز الشرق الأوسط الثقافي، ٢٠١١، ص ١٠٩-١٢٥ .

انحدر لوك من طائفة البيورتان أو المطهرين Puritanism (طائفة يروتساننتية نشأت في انكلترا إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر، طالبت بتبسيط الطقوس الدينية والتمسك بأهداب الفضيلة) ، توفيت والدته عندما كان طفلاً، ويصفها في شيخوخته "أنها كانت امرأة ورعة جداً، وأماً عطوفة"، أما والده فعمل كمحامي ريفي، وانفق جزء كبير من ثروته على القوات التي جهزها البرلمان خلال الحرب الأهلية (١٦٤٢-١٦٥١)^(١) ، كذلك اهتم بتربية وتوجيه ابنه شخصياً، فاكسب أهم صفات المذهب البيورتاني كالعطف، الذكاء، التفاني، الاستقامة، الثقة بالذات، الدفاع عن مبادئ الحرية^(٢) .

كذلك بالإمكان تحديد ثلاثة أحداث رئيسية، وجهت حياة لوك، وعلى النحو التالي :

١. انتقاله من القرية إلى لندن عام ١٦٤٦ للدراسة في مدرسة وستمنستر، ثم بعد ذلك إلى جامعة أكسفورد، للالتحاق بكلية المسيح (١٦٥٢-١٦٥٩).

أهتم لوك بدراسة الطب بشكل خاص حتى أصبح طبيباً، وهو مسار اتبعه بنشاط ، إذ درس الطب في جامعة أكسفورد، بشكل منتظم لسنوات طويلة، ثم قدم خدمات طبية مهمة لمعارفه، كما ارتبط بصداقة متينة مع واحد من أبرع الأطباء في القرن السابع عشر، هو الدكتور توماس سدنهام Thomas Sydenham، الذي كان من رواد علم الأمراض الوبائية، كما إن براعته الطبية، وليست الفلسفية اللاهوتية، هي ما منحته أهم فرصة في حياته، تمثلت بصداقته مع اللورد آشلي Ashley، الذي أصبح فيما بعد إيرل شافتسبري الأول (١٦٢١-١٦٨٣) .

٢. يمكن اعتبار هذه الصداقة التي بدأت العام ١٦٦٦، الحدث الثاني في حياة لوك، إذ كان شخصية مؤثرة في بلاط الملك تشارلز الثاني Charles II (١٦٦٠-١٦٨٥).

٣. شغفه بعلم الفلسفة والدراسات الفلسفية، وهنا وجب التنويه، إلى أن هذا الحدث كان في البدء أقل أهمية لديه، من الحدثين السابقين، في حين اقتصر اهتمامه على "السلطة السياسية، والتسامح، ونظرية

١ للتفاصيل عن التطورات السياسية في انكلترا خلال القرن السابع عشر ينظر: بارينجتون مور، الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية، ط١، ترجمة احمد محمود، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، تموز ٢٠٠٨، ص ٢٩-٥٠ .
٢ ولیم کلی رایت، المصدر السابق، ص ١٥٤-١٥٥ .

الأخلاق، و نظرية المعرفة"، وهي اهتمامات لربما بدأت منذ العام ١٦٥٠، ولا يوجد مبرر للافتراض إن ذلك جاء نتيجة عمله لدى شافيتسبري^(١).

لم يتأثر لوك بالمقررات الدراسية، في مدرسة وستمنستر، والتي اقتصرت على دراسة القواعد والترجمة باللغتين اليونانية واللاتينية، كما لم يُحب القواعد الصارمة المطبقة في تلك المدارس، فانتقدها، وسعى لوضع أسس جديدة للتربية تتميز بالمرونة والحرية، وقد وصف تلك الطريقة الكلاسيكية ومقترحات الإصلاح في كتابه "أفكار في التربية" الصادر عام ١٦٩٣.

كذلك واجه خيبة الأمل، في جامعة أكسفورد التي التحق بها لدراسة الفلسفة، إذ كانت المناهج مزيج من فلسفة القرون الوسطى وفلسفة أرسطو مع بعض المفردات المبهمة، لكنه استمر في تحصيله الجامعي، ولم يكن اهتمامه بذلك يعود إلى دراسته الأكاديمية، وإنما إلى قراءاته الشخصية، وخاصة لديكارت الذي وجد في كتاباته وأفكاره الواضحة السلسة، نوعاً من التمرد على تلك الفلسفة المدرسية التقليدية التي لم تكن تُنقح الفكر أو تلبي احتياجاته الخاصة، فانتهى لقناعة مفادها أن الفلسفة ليست مجرد عبارات فخمة براقية أو معقدة غير مفهومة.

واصل لوك دراسته الفلسفية مع قراءاته الشخصية، ليحصل على درجة البكالوريوس B.A عام ١٦٥٦، ثم على درجة الماجستير M.A بعدها بعامين، ليتم تعيينه في عام ١٦٦٠ محاضراً بالفلسفة اليونانية وفلسفة الأخلاق في نفس الكلية، مع مواصلة دراسة المنطق وعلم الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) والتاريخ والفلك والطبيعة واللغات، كما اهتم بدراسة العلوم الطبيعية، ويبدو ذلك الشغف من صداقته لكبار علماء عصره كنيوتن Newton (١٦٤٣-١٧٢٧) وبويل Boyle (١٦٢٧-١٦٩١).

بذل لوك جهوداً كبيرة في دراسة الطب واستطاع الحصول على شهادة BM (بكالوريوس طب وجراحة) من أكسفورد، تسمح له بمزاولة مهنة الطب، لكنه لم يمارسه بشكل أساسي أو منتظم، إذ كان مسعاه من ذلك هو الرغبة في تطبيق نظريات العلوم الطبيعية على الأمراض التي تصيب البشر، وهو ما كان يتبناه أصدقاؤه

١ أ.د.إمام عبد الفتاح إمام، جون لوك والمرأة، بيروت، دار التنوير، للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩، ص ٢٣-٢٤.

من العلماء، وفي النهاية استطاع أن يتبين شغفه الخاص الذي لم يكن الدين أو الطب أو السياسة، بل الفلسفة (١)

في تلك المرحلة نشر لوك أول مؤلفاته وهي رسالة صغيرة "في التشریح" عام ١٦٦٨، كما انتخب عضواً بالجمعية الملكية، ثم نشر رسالة أخرى "في الفن الطبي" عام ١٦٦٩، حيث أعلن أن " النظريات العامة تقف سير العلم، وان لا فائدة إلا في فرض الجزئي الموجه إلى إدراك العلل الجزئية"، ليبين بوضوح للعموم اتجاهه التجريبي.

اضطره الصراع المحتدم بين البرلمان وتشارلز الثاني إلى مغادرة البلاد، فقصده إلى فرنسا مرتين (١٦٧٢)، ثم إلى هولندا عام ١٦٨٣ حتى قيام ثورة ١٦٨٨، فعاد إلى وطنه في العام التالي، وعرضت عليه السلطات منصب سفير لدى إمارة براندبورغ، لكنه اعتذر لسوء حالته الصحية، وقبل منصب آخر هو " قوميصرية التجارة والمستعمرات"، ثم اعتزل الخدمة، وفي هذا الجزء الثاني من حياته، ساهم في جميع الحركات الفكرية التي كان يزخر بها عصره، ووضع فيها كتباً هي: رسالة " في الإكليروس"، "خاطر في الجمهورية الرومانية"، "لا ضرورة لمفهوم معصوم للكتب المقدسة"، " في التسامح"، " في الحكومة المدنية"، "معقولة المسيحية"، " اعتبارات في نتائج تخفيض الفائدة وزيادة قيمة النقد"، "خاطر في التربية"، والكتاب الأخير يشيد فيه بالطريقة التي اتبعها والده في تربيته.

أما الفلسفة فقد توجه إليها اهتمامه في شتاء ١٦٧٠-١٦٧١ من جراء نقاشات مستفيضة مع زملائه، لم تقضي إلى نتائج علمية مقنعة، فتنبه إلى أنه يتمتع إقامة "مبادئ الأخلاق والدين المنزل إلا بعد الفحص عن كفايتنا والنظر في أي الأمور هو في متناولنا وأياً يفوق إدراكنا"، وهكذا نشأت عنده فكرة البحث في المعرفة فوضع لفوره رسالة " في الفهم الإنساني" ارجع فيها المعاني الإنسانية إلى جذورها الإنسانية المستمدة من التجربة، ثم عكف على الأمر ذاته ليخصص له تسعة عشر عاماً من البحث والتمحيص، حتى أنجز كتابه الشهير " بحث حول الفهم الإنساني" عام ١٦٩٠، الذي قسمه إلى أربع مقالات، الأولى في دحض نظرية المعاني الغريزية، والثانية في تقسيمها إلى بسيطة ومركبة وشرح أصلها التجريبي، والثالثة في اللغة ودلالات الألفاظ على المعاني وتأثيرها على الفكر ونقد الفلسفة المدرسية لكونها فلسفة لفظية، والرابعة

١ الأستاذ الدكتور فاروق عبد المعطي، جون لوك، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣، ص ٦-٧ .

في المعرفة، وتبحث في اليقين الميسور لنا، ومغزى المبادئ الأخلاقية، ومعرفتنا بوجودنا ووجود الخالق عز وجل، والماديات، وفي العقل والدين، والمقالة الأولى تمثل الجانب السلبي، والأخريات الجانب الإيجابي، أي بيان المذهب التجريبي، المعارض لنظرية المعاني الغريزية، وقد وضعها لوك أولاً، لتوقف المقالة الأولى عليها.

أي أن القاريء يقبل هذه المقالة بسرعة اكبر إذا ما رأى كيف يكتسب العقل معارفه، كما يذكر المؤلف نفسه، وتم إعادة طبع الكتاب للمرة الثانية عام ١٦٩٤، مع إضافات كثيرة وتعديلات مهمة، كما جرى ترجمته إلى الفرنسية عام ١٧٠٠، وتم نشره بعد أن راجعه المؤلف وأضاف إليه، وصحح من بعض محتوياته (١).

المبحث الرابع: أفكاره الإصلاحية.

عندما يبدأ الحديث عن مسيرة التحول من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، يردُّ إلى الذهن، وبشكل تلقائي، انكلترا، التي حافظت على هذه السمة الرائعة لمدة طويلة، وإلى الوقت الحالي، بل ولربما كانت أفضل في ميدان حرية التعبير والتسامح مع المعارضة بكافة أطرافها وتوجهاتها، من الولايات المتحدة، بالتزامن مع حضور فعال للطبقة الارستقراطية في ميدان الإصلاح، كما إن هناك عنصر غير معهود بشأن مقدرة طبقات المجتمع على تسوية الخلافات من خلال الصيغ الديمقراطية، التي تنتشر وتسهم في التحول الكامل من الاقتصاد المعتمد على الزراعة التقليدية إلى الأخذ بأسباب الصناعة، وهي العملية التي بدأت في النصف الأول من القرن السابع عشر، متخذة شكل الصراع الاجتماعي الذي تطور إلى الحروب الأهلية، ليأخذ المجتمع الحديث والعلماني موقعه ببطء، بالرغم من هيمنة الإقطاع والاكليروس، وبشكل أكثر تحديداً فإنه وبدءاً من القرن الرابع عشر، ظهرت إشارات إلى الأهمية المتسارعة للتجارة في الريف والمدن، بالتزامن مع تفكيك روابط النظام الإقطاعي، والاستعاضة عنه بالنظام الملكي الدستوري، حيث جرى الأمر في نطاق صراع ديني محتدم (٢).

١ يوسف كرم، المصدر السابق، ص ١٨١-١٨٣.

٢ بارينجتون مور، المصدر السابق، ص ٢٧-٢٨ . للتفاصيل ينظر: د. رسول محمد رسول، محاضرات في الفلسفة والفكر وهوية اللغة، ط١، الكوفة، تنويريات للنشر، ٢٠١٩، ص ١١٨-١٢٦. للتفاصيل عن الفكر السياسي السائد في تلك المرحلة ينظر: جان جاك شوفالبيه، تاريخ الفكر السياسي، ط١، ترجمة د. محمد عرب صاصيلا، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص ٣٧٣-٣٧٨.

يُعتبر جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤)، واحداً من ابرز علماء الفلسفة في العصر الحديث، وهو بلاشك أهم فلاسفة القرن السابع عشر، إذ يُعد مؤسس المذهب التجريبي ضمن نظرية المعرفة، كما يُعد مؤسس مفهوم الليبرالية الحديثة على الصعيد السياسي والاقتصادي، حيث مهدت نظريته عن العقد الاجتماعي المجال أمام المشاركة السياسية الواسعة للعموم، في حين أسهمت آراؤه عن مفهوم الملكية الفردية في وضع حجر الأساس لمبدأ الاقتصاد الحر.

كان عام ١٦٦١ عاماً فارقاً في حياته، إذ رحل والده بداء السل، وترك له ثروة بسيطة وأورثه رثتين سقيمتين، لكنه بدأ مرحلة جديدة من مسيرته العملية، باتجاهه لدراسة الطب، بدلاً من الانخراط بالدراسات الدينية، وفي الوقت ذاته بدأ مطالعته الفلسفية، فأخذ شغفه بالفلسفة يتزايد إلى جانب الدراسات العلمية، وبدأ يمارس التجريب العملي بمساعدة صديقه بويل، ثم تلقى دعوة للالتحاق بخدمة إيرل شافتبيري الأول عضو الوزارة ووزير العدل في عهد تشارلز الثاني، لذا أثرت تلك التطورات في خلفيته الفكرية تأثيراً مباشراً، حيث ارتبط الاهتمام الفلسفي لديه بالجانب العلمي، كما تزامن ذلك مع انخراطه في ميدان السياسة، إذ شكلت أحداثها وتقلباتها خلاصة تجربته الحياتية (١).

في البدء يمكن إدراك فكرة أسبقية العدالة بطريقتين متباينتين لكنهما مترابطتان:

الطريقة الأولى تلك التي تدخل ضمن مادة هذا البحث، إذ تنطوي على مغزى أخلاقي مباشر، وتفيد بأنها تحظى بالأسبقية من حيث أن متطلباتها تُرجح على غيرها من المصالح الأخلاقية والسياسية مهما بلغت أهميتها، وتبعاً لهذا، فالعدالة ليست مجرد قيمة كسواها، تُقاس بحسب مقتضيات الحال، بل هي أسمى القيم الاجتماعية على الإطلاق، لذا يجب الاستجابة لها قبل غيرها من القيم، حيث ذهب لوك إلى أن حقوق الإنسان الطبيعية أقوى من أن يلغها أي نظام سياسي مهما بلغت سلطته (٢).

حتى العام ١٦٦٧، إبان الخمسة عشر عاماً التي قضاها في أكسفورد، اقتصر نتاجه الفلسفي على بحثين أساسيين، مقالان حول نقاط الضعف في المطالبات بالتسامح الديني بعنوان "مقالان في الحكم"؛ أحدهما باللغة الانكليزية والآخر باللاتينية، كُتبا عامي ١٦٦٠ و١٦٦١ ولم ينشرا حتى القرن العشرين، وثانيهما

١ الأستاذ الدكتور مصطفى حسن النشار، المصدر السابق، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

٢ مايكل ج. ساندل، الليبرالية وحدود العدالة، ط١، ترجمة محمد هناد، مراجعة الزبير عروس، عبد الرحمن بوقاف، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، كانون الأول ٢٠٠٩، ص ٣٦-٣٧.

مجموعة من المحاضرات بعنوان "مقالات حول قانون الطبيعة"، أُلقيت عام ١٦٦٤ باعتباره "مسؤول الفلسفة الأخلاقية" في كلية كنيسة المسيح، إذ بالإجمال بقيت القضايا المتصلة بنطاق وحدود الحريات الدينية، ونمط حياة الأفراد تبعاً لها، تمثل قضايا أساسية في فكر لوك في العقود التالية، لكن هذين الإصدارين افتقدا إلى سعة الأفق والنظرة الشمولية التي اتسم بها نتاجه المعرفي اللاحق، كما اظهرت توجه سياسي مختلف للغاية، ذلك انه لم يحظي أثناء وجوده بأكسفورد بفرصة لوضع آراء فلسفية وشرع بالتعبير عنها بالفعل، وإنما كانت بالأحرى فرصة للإسهام في الأبحاث الكيميائية والطبية لبويل وهوك، وسيدنهام، فتعلم أهمية الملاحظة الدقيقة، وقيمة التواصل وسعة الأفق والجهد الدؤوب نحو فهم أسرار الطبيعة، وكما عبر سيدنهام عن ذلك في عام ١٦٦٩ في مخطوطة كتبها لوك بخط يده "تنشأ المعرفة الحقيقية في العالم عن طريق التجربة والملاحظة العقلانية في البداية، لكن الإنسان الطموح الذي لا يكتفي بالمعرفة التي هو مؤهل لها، والتي كانت نافعةً له، سيحتاج إلى أن يتغلغل في الأسباب الكامنة وراء الأشياء، وأن يؤسس لمبادئ وأن يضع لنفسه مسلمات وثوابت حول عمليات الطبيعة وآلياتها؛ ومن ثم يظن عبثاً أن الطبيعة - أو في الحقيقة الإله - ينبغي أن تسير طبقاً للقوانين الواردة في مسلماته وثوابته تلك" (١) .

يعتقد لوك ، بشكل عام أننا لا نعرف شيئاً عن الوجود الحقيقي إلا عن طريق الإحساس، ويستثني من ذلك وجود الخالق، الذي يؤمن أنه يأتي ضمن مفهوم المعرفة البرهانية، فيقدم برهان موثق من نقاط مختلفة، كل واحدة منها تُدرك بطريقة حدسية، وإذا اجتمعت تشكل البرهان، فالإنسان يعرف بصورة حدسية بأنه موجود، ويعلم أن العدم لا ينتج عنه شيء، لذا فمنذ البدء يوجد شيء ، يتمتع بالقوة، فهو مصدر كل القوة والمعرفة، إذ لا يمكن تصور أن أي شيء بدون معرفة، يُحتمل أن ينتج الموجودات التي تحظى بذلك، أي البشر (٢) .

يعتبر جون لوك احد أهم منظري الفكر الليبرالي، فهو يعارض هوبز في تصويره للفرد بأنه قوة غاشمة، وتبنيه مبدأ أن الطبيعة تحمل صفة التوحش، فالبقاء للأقوى، إذ يؤكد أن للإنسان حقوق مطلقة لا يخلقها المجتمع، وأن حالة الطبيعة تستند على الحرية، حيث العلاقة المألوفة بين البشر علاقة كائن حر بكائن حر

١ جون دن، جون لوك (مقدمة قصيرة جداً)، ط١، ترجمة فائقة جرجس حنا، مراجعة هبة عبد المولى، القاهرة، مؤسسة هندواي، ٢٠١٦، ص ٢٤ .

٢ وليم كلي رايت، المصدر السابق، ص ١٧٢ . للتفاصيل ينظر: جان جاك شوفالبييه، المصدر السابق، ص ٣٦٨-٣٧٢ .

تؤدي إلى المساواة، والعلاقات الطبيعية باقية بغض النظر عن العرف الاجتماعي، فينتج مجتمع وقانون طبيعي يسبق القانون المدني، لذا فليس للبشر حق بكل شيء ، ولكن حقهم في التمتع بحريتهم والدفاع عنها، وعن كل ما تتضمنه من حقوق، كحق الملكية وحق الحرية الشخصية وحق الدفاع عنهما.

أما حق الملكية فهو حق طبيعي يستند على العمل ومقداره، لا على الحيازة أو القانون الوضعي، ولا يمتلك احد الحق بالمساس بما يمتلكه الإنسان بجهد، لكنها مشروطة، بأن يتم الحفاظ على الملكية فلا تتعرض للتلف، كما يجب أن يدع للآخرين ما يكفي حاجتهم، فهذا حق أصيل لهم، أي أن حرية العمل هي ما يسوغ الملكية، فيجب أن تبقى مضمونة للجميع.

كذلك يسري المبدأ ذاته على الحرية الشخصية، أي ليس هناك سيادة طبيعية لإنسان على آخر، فسلطة الأب لكي يربي الابن، ويجعل منه إنسان، أي كائن حر، فهو واجب طبيعي أكثر منه سلطة، وهي وقتية لا تشبه علاقة السيد بالعبد، كما تزول بسوء التصرف، كذلك السلطة السياسية تفاهم وعقد مشترك، فإفراد المجتمع متساوون بالعقل والحرية، بخلاف حالة الإباء، فأساس الاجتماع الحرية والمبدأ في العقد الاجتماعي الحفاظ على الحقوق الطبيعية، لا إلغائها لصالح الحاكم، لذا ليس بمقدور الأفراد التنازل إلا عما يتنافر من حقوقهم مع حال الاجتماع، أي سلطة الاقتصاص، " فالسلطة المدنية قضائية في جوهرها؛ لذا لم تكن السلطة المطلقة الغاشمة مشروعة، خلافاً لما يدعي هوبز، الحق أنها ليست شكلاً من أشكال الحكومة المدنية، وإنما هي محض استعباد، والملك المستبد خائن للعهد، والشعب في حل من خلع نيره".

يجب الفصل بين الدولة والكنيسة، فهدف الأولى الدنيا وهدف الثاني الآخرة، فالبشر يولد ملك للوطن لا للكنيسة، والدخول إليها طوعي، ولما كان المجتمع المدني لا يستند على أراء الكنيسة، فلا يحق للدولة أن تراعي العقيدة في سن القوانين، لذا يجب السماح بجميع أنواع العبادات، مع منح الكنيسة السلطة فيما يتعلق بإدارة شؤونها وأمور العقيدة والطقوس، تبعاً للقوانين العامة، فتسود الحرية جميع نواحي المجتمع المدني (١).

في دفاع جون لوك عن الثورة الجلية في انكلترا عام ١٦٨٨، التي أنهت حكم أسرة ستيوارت (١٦٠٣-١٦٨٨)، ورسخت سلطة البرلمان، لم يبدأ بمهاجمة آراء هوبز، بل هاجم ذريعة أولئك الملوك المستبدين، من أن السيادة نمط للحكم الملكي الوراثي، لأن ذلك ما كانت تتبناه تلك الأسرة الحاكمة في مواجهة خصومها

١ يوسف كرم، المصدر السابق، ص ١٩٢-١٩٤.

من دعاة الديمقراطية، والمستمدة من آراء الفيلسوف والسياسي روبرت فيلمر (Robert Filmer) (١٥٨٨-١٦٥٣)، التي تقوم على حق الملوك الطبيعي في الحكم، بدعوى تأسيس السلطة السياسية وفق الأنموذج الأبوي (١).

كان اعتراض جون لوك على آراء هوبز، بأن الأفراد لا يستطيعون الاهتداء إلى أي حياة مسالمة ومريحة، بعضهم مع البعض الآخر، ما لم يكونوا محكومين بإملاءات سلطة غير قابلة للقسم، ثم فند ذلك برمته بالقول " هذا يعني الاعتقاد بأن الناس حمقى إلى درجة أنهم يحرصون على تجنب ما قد يلحق بهم من أذى من فئران الخيل والثعالب، ولكنهم راضون، بل مطمئنون، أن تلتهمهم الأسود"، أي بمعنى أن الناس الذين لا يثقون بعضهم البعض، مستعدين لمنح ثقتهم لحاكم مستبد يتولى حماية حقوقهم، نافياً الفكرة الشائعة بحتمية وجود سلطة مستبدة في جميع المجالات، لأن مؤسسة الحكم بحسب رأيه، يمكن بل ويجب أن يُنظر إليها بكونها أداة للدفاع عن "حياة، حرية وملكية، مواطينها"، أي أن مغزى وجود الحكومة هو حماية حقوق الأفراد التي منحها إياهم الخالق، ورسخها القانون (٢).

أسهمت كتابات جون لوك في تطوير فلسفة التربية، إذ تبني مقولة "العقل السليم في الجسم السليم"، فقدم من واقع خبرته الطبية والتربوية تعليمات دقيقة عن التغذية، والملبس، والتدريب، التي تعتبر وسائل مفيدة على الدوام لتنشئة الأبناء الأصحاء، كما حدد الأهداف الأساسية في التربية، وهي " الفضيلة، والحكمة، والتربية، والفضيلة، والتعليم" (٣).

ترجع أهمية جون لوك في تاريخ الفلسفة إلى عدة اعتبارات أهمها:

١. أنه أول من حدد مشكلة المعرفة بمفهومها الحالي، وأخضعها للبحث والتمحيص.
٢. لفت أنظار الناس إلى أهمية التفكير العميق، لوضع الحلول للمشكلات التي تواجههم.

١ جون إهرنبرغ، المصدر السابق، ص ١٧٠.

٢ ديفيد هيلد، نماذج من الديمقراطية، الجزء الأول، ط١، ترجمة فاضل جتكر، بغداد- بيروت، معهد الدراسات الإستراتيجية، ٢٠٠٦، ص ١٤٣.

٣ وليم كلي رايت، المصدر السابق، ص ١٧٨-١٧٩. للتفاصيل ينظر: نسرين خليل حسين، فلسفة التربية عند جون لوك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٩.

٢. قدم لمعاصريه دراسات هامة وقيمة، وخاصة في الفروق بين الصفات الأولية والثانوية، ومغزى فكرة الجوهر وتحليل اللغة ومعاني الكلمات.

٤. طبق الاتجاه التجريبي في الفلسفة على بحوثه في نظرية المعرفة بالذات.

٥. اتبع المنهج الاستقرائي في دراسته لنظرية المعرفة، بدلاً عن المنهج القياسي المتبع (١).

تجاوز تأثير هذه الأفكار نطاق الحياة الفكرية في انكلترا إلى بقية أنحاء العالم، فأسهمت بشكل مباشر في صياغة توجهات فلاسفة التنوير في فرنسا، كمونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥)، الذي اعتنق هذه الأفكار إبان زيارته لانكلترا للمدة (١٧٢٩-١٧٣١)، وفولتير Voltaire (١٦٩٤-١٧٧٨)، وروسو Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨)، وبرز أثرها المباشر في إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي أصدرته الجمعية التأسيسية في ٢٨ آب ١٧٨٩.

وعندما اندلعت الثورة الأمريكية (١٧٧٦-١٧٨٣)، استعان قادتها بآراء جون لوك بل استخدموا مفرداته ذاتها تقريباً في إعلان الاستقلال، كما إن الحقوق التي دونها في فلسفته أضحت وثيقة الحقوق في التتحيات العشرة الأولى للدستور الأمريكي، أما الملاحظات حول مبدأ فصل السلطات كما وسعها مونتسكيو لتضم إلى جانب السلطتين التشريعية والتنفيذية، السلطة القضائية، فقد أسهمت بشكل مباشر في تحديد شكل الحكومة الأمريكية، كذلك اخذ اهتمامه الشديد بحق الملكية الخاصة طريقه إلى القوانين، وأثرت مقالاته عن التسامح في الآباء المؤسسين، وأدت لفصل الكنيسة عن الدولة، وإقرار الحريات الدينية (٢).

الخاتمة.

اهتم الفلاسفة خلال المدة السابقة للقرن التاسع عشر بمشكلة المنهج، لكن، وفي الأعم الأغلب لم يرتابوا في وجود حقائق مستقلة تحظى بالموضوعية، بالإمكان إدراكها بطريقة ما، كما أنهم لم يشكوا في وجود طريقة موضوعية للتفكير في الواقع، ذات نمط جمعي، لا ينتج عنها تغيير جذري لما هو متداول، فهم بطبيعة الحال لم يتوغلوا بالمجمل في مفهوم الموضوعية ذاته، بل اقتصر الأمر على استعماله للدلالة على إيمان شبه شعوري بمقدرة العقل على الإدراك الموضوعي، وقد أشاروا إلى ما دعوه العقل Reason، باعتباره الملكة العاقلة التي تُدرك من خلالها القوانين الطبيعية

١ أ.د. فاروق عبد المعطي، المصدر السابق، ص ١٦-١٧. للتفاصيل ينظر: جون دن، المصدر السابق، ص ٧٧-٧٩.

٢ الأستاذ الدكتور مصطفى حسن النشار، المصدر السابق، ص ٢٢٠.

إن المراحل الانتقالية ليست يسيرة بالمجمل، كذلك التحول نحو الحداثة، إذ أدى تدهور المظاهر الحياتية خلال العصر الوسيط، إلى تفشي الاضطرابات، الأمر الذي منع ظهور نظريات ذات جدوى حول التطور المجتمعي، كذلك كانت الأطر التقليدية، في حين لم تبرز الرؤية الجديدة، إذ كانت البنى السياسية والاقتصادية الجديدة في مراحلها الأولى، وكان النفوذ المتنامي للأسواق الناشئة والدول القومية، يزيح الإقطاع والطبقات الاجتماعية التقليدية، ويؤرخ لهذه المرحلة التي تدعى "العلم الطبيعي" خلال المدة (١٦٠٠-١٦٩٠)، لذا وفي انكلترا، وهولندا، وفرنسا، كانت الظروف مناسبة بشكل أكثر، وتحققت انجازات مهمة.

يُعتبر جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤)، واحداً من ابرز علماء الفلسفة في العصر الحديث، وهو بلا شك أهم فلاسفة القرن السابع عشر، إذ يُعد مؤسس المذهب التجريبي ضمن نظرية المعرفة، كما يُعد مؤسس مفهوم الليبرالية الحديثة على الصعيد السياسي والاقتصادي، حيث مهدت نظريته عن العقد الاجتماعي المجال أمام المشاركة السياسية الواسعة للعموم، في حين أسهمت آراؤه عن مفهوم الملكية الفردية في وضع حجر الأساس لمبدأ الاقتصاد الحر.

يعتقد لوك، بشكل عام أننا لا نعرف شيئاً عن الوجود الحقيقي إلا عن طريق الإحساس، ويستثني من ذلك وجود الخالق، الذي يؤمن أنه يأتي ضمن مفهوم المعرفة البرهانية، فيقدم برهان موثق من نقاط مختلفة، كل واحدة منها تُدرك بطريقة حدسية، وإذا اجتمعت تشكل البرهان.

تبنى جون لوك مبدأ الفصل بين الدولة والكنيسة، فهدف الأولى الدنيا وهدف الثاني الآخرة، فالبشر يولد ملك للوطن لا للكنيسة، والدخول إليها طوعي، ولما كان المجتمع المدني لا يستند على آراء الكنيسة، فلا يحق للدولة أن تراعي العقيدة في سن القوانين، لذا يجب السماح بجميع أنواع العبادات، مع منح الكنيسة السلطة فيما يتعلق بإدارة شؤونها وأمور العقيدة والطقوس، تبعاً للقوانين العامة .

يعتبر جون لوك أحد ابرز منظري الثورة الجلية في انكلترا عام ١٦٨٨، التي أنهت حكم أسرة ستوارت (١٦٠٣-١٦٨٨)، ورسخت قيم الديمقراطية وسلطة البرلمان، وفي دفاعه عنها، لم يبدأ بمهاجمة آراء هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩)، بل هاجم ذريعة أولئك الملوك المستبدين، من أن السيادة نمط للحكم الملكي الوراثي، لأن ذلك ما كانت تتبناه تلك الأسرة الحاكمة في مواجهة خصومها من دعاة الديمقراطية، والتي تقوم على حق الملوك الطبيعي في الحكم، بدعوى تأسيس السلطة السياسية وفق الأنموذج الأبوي.

لم يقتصر اهتمام جون لوك على مبادئ السياسة والدين، بل امتد ليشمل مجالات أخرى، منها الاجتماع ولاقتصاد، لكنه بقي مخلصاً، للنظريات الإصلاحية التي سيق وتبناها طيلة حياته، بالتأكيد على اعتبار الإنسان أهم القيم في المنظومة الحياتية، وأن الحرية والعقلانية هي الأسس، التي يجب أن تقوم عليها الدول والمجتمعات، لذا كان من أبرز الفلاسفة الأوروبيين المؤثرين، ورائد المذهب التجريبي في الفلسفة، فكانت مؤلفاته الكثيرة، محط اهتمام الثوار ودعاة التغيير، تجاوز في مداه أوروبا، بالنظر إلى ما تتضمنه من قيم إنسانية رفيعة، قابلة للتطبيق في المجتمعات التي تتوق للحصول على حريتها، وتنظيم أمورها وفق قواعد إنسانية رصينة، ذات مدى واسع.

قائمة المصادر.

أولاً: الرسائل الجامعية .

نسرين خليل حسين، فلسفة التربية عند جون لوك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠٩ .

ثانياً: الكتب العربية والمعرية.

١. أ.د.إمام عبد الفتاح إمام، جون لوك والمرأة، بيروت، دار التنوير، للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩ .
٢. بارينجتون مور، الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية، ط١، ترجمة احمد محمود، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، تموز ٢٠٠٨ .
٣. جان جاك شوفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، ط١، ترجمة د.محمد عرب صاصيلا، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٨ .
٤. جون إهرنبرغ، المجتمع المدني (التاريخ النقدي لفكرة)، ط١، ترجمة د.علي حاكم صالح د. حسن ناظم، مراجعة د. فالح عبد الجبار، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، شباط ٢٠٠٨ .
٥. جون دن، جون لوك (مقدمة قصيرة جداً)، ط١، ترجمة فايقة جرجس حنا، مراجعة هبة عبد المولى، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٦ .
٦. خوسيه كازانوف، الأديان العامة في العالم الحديث، ط١، ترجمة قسم اللغات الحية في جامعة البلمند، مراجعة الأب بولس وهبة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، آيار ٢٠٠٥ .

٧. ديفيد هيلد، نماذج من الديمقراطية، الجزء الأول، ط١، ترجمة فاضل جتكر، بغداد - بيروت، معهد الدراسات الإستراتيجية، ٢٠٠٦ .
٨. د. رسول محمد رسول، محاضرات في الفلسفة والفكر وهوية اللغة، ط١، الكوفة، تنويريات للنشر، ٢٠١٩ .
٩. -----، هيا إلى التنوير، ط١، الكوفة، تنويريات للنشر، ٢٠١٩ .
١٠. شايع الوقيان، الفلسفة بين الفن والأيدولوجيا (نقد ميتافيزيقا التصور)، ط١، النادي الأدبي بالرياض، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٠ .
١١. د. علي زيدان خلف الجبوري، د. مشحن زيد محمد التميمي، تضاريس الأيدولوجيا، ط١، القاهرة، ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٤ .
١٢. الأستاذ الدكتور فاروق عبد المعطي، جون لوك، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣ .
١٣. د. فيصل عباس، الموسوعة الفلسفية (الفلسفة وفلسفة التاريخ)، ج١٤، ط١، بيروت، مركز الشرق الأوسط الثقافي، ٢٠١١ .
١٤. مايكل ج. ساندل، الليبرالية وحدود العدالة، ط١، ترجمة محمد هناد، مراجعة الزبير عروس ، عبد الرحمن بوقاف، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، كانون الأول ٢٠٠٩ .
١٥. الأستاذ الدكتور مصطفى حسن النشار، أعلام الفلاسفة حياتهم ومذاهبهم، ط١، عمان، دار المسيرة، ٢٠١١ .
١٦. ميشيل فاديه، الأيدولوجية (وثائق من الأصول الفلسفية)، ترجمة د. أمينة رشيد/سيد الجراوي، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦ .
١٧. ناصيف نصار، الفلسفة في معركة الأيدولوجية، ط٢، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٢ .
١٨. هنري د. أيكن، عصر الايدولوجية، ترجمة فؤاد زكريا، مراجعة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٣ .
١٩. وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط١، ترجمة محمود سيد احمد، تقديم ومراجعة أمام عبد الفتاح أمام، بيروت، دار التنوير، ٢٠١٠ .
٢٠. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية الحديثة، ط٢، بروكسل - باريس، ألكا - المفكر، ٢٠٢٠ .